

ثالثاً : العدول عن تنوين اسم الفاعل لضرورة وجود الحدث أو ترتبه على

ما مضى :

ويأتي التأكيد على وقوع ما هو في الحال والاستقبال بالعدول إلى الإضافة لمسوّغ ضرورة وجود الحدث الذي يقع في الحال أو الاستقبال ، والعدول بذلك يكشف عن هذه الضرورة ، وهو ما يوجد في تراكيب هذا المبحث.

متخذ :

جاء اسم الفاعل "متخذ" ثلاث مرات ، مرتان في التركيب الإضافي "متخذات أخدان" والتركيب الإضافي "متخذي أخدان" وسيأتي الحديث عنهما في المبحث السادس إن شاء الله تعالى.

والمرة الثالثة التي جاء فيها اسم الفاعل "متخذ" مضافاً كانت في التركيب الإضافي "متخذ المضلين" في قوله تعالى: ﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا ﴾ (الكهف: ٥١).

يقول الزمخشري: ((بمعنى وما كنت متخذهم عضداً أي: أعواناً ، فوضع "المضلين" موضع الضمير ذمّاً لهم بالإضلال ؛ فإذا لم يكونوا عضداً لي في الخلق فما لكم تتخذونهم شركاء لي في العبادة ؟ وقرأ علي -رضي الله عنه- "وما كنت متخذاً المضلين" بالتنوين على الأصل))^(١).

فتركيب "متخذ المضلين" يدلّ على نفي اتخاذ الأعوان في الخلق من الأزل ، فهي دلالة في الزمن الماضي توافق دلالة الإضافة على الزمن الماضي ، فالتركيب في صورته الأصلية ، أي أن الإضافة محضة.

(١) الزمخشري ، الكشاف ، ٦٤/٣

أما على القول بأن أصل التركيب الإضافي التنوين ، فإن نفي اتخاذ المضلين أعوأا يكون في زمن الحال أو الاستقبال ، أي: بعد خلق هؤلاء المضلين ، فأنه لم يشهدهم خلق أنفسهم ، فلم يكن المضلون موجودين في الزمن الماضي ليكونوا أعوأا فيه ، والله لن يتخذهم أعوأا في الحال أو المستقبل بعد خلقهم فدلالة الحال والاستقبال (على أن أصل الإضافة التنوين) جاءت من أن الآية تذكر أن المضلين غير موجودين في زمن الخلق ، فيكون اتخاذهم أعوأا بعد زمن الخلق ، أي في زمن متقدم على الزمن الماضي ، أي في زمن الحال أو الاستقبال .

ليكون المعنى: أن الله تعالى لم يشهد المضلين خلق السموات ولا الأرض ولا خلق أنفسهم فيما مضى ، لأن المضلين غير موجودين أزلاً ، ولم يكن الله تعالى ليجعلهم عضداً (أعوأا وشركاء) فيما بعد خلقهم ، أي في الحال أو المستقبل ، وعليه يكون أصل التركيب الإضافي التنوين "متخذاً المضلين".

والاتخاذ مصدر "متخذ" يأتي بعد الخلق ، فيظهر أن الاتخاذ جعل الشيء لما ليس له هذا الجعل أصلاً ، فجد قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ (البقرة: ١٢٤) لأنه ليس تغييراً لجعل سابق ، بينما نجد قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (النساء: ١٢٥) لأنه أبعد في الجعل من أن يكون إبراهيم إماماً.

وهذا يبين أن معنى "متخذ المضلين عضداً" يشتمل على أمرين:

١- اتخاذ العون .

٢- جعل الضلال عوئاً ، وهو أبعد من اتخاذ العون .

لذا جاء نفي الوصف في التركيب الإضافي لتأكيد سنة قام عليها الخلق والكون ، وهي سنة قيامه على الحق والعدل ، وهي سنة دائمة مقررة أزلاً .

فإن كان نفي اتخاذ المضلين نفيًا في زمن الحال لخلقهم (فالأصل فيه التنوين الدالّ على زمن الحال أو الاستقبال) فإن العدول عن التنوين إلى الإضافة ليبين أن عدم اتخاذ المضلين وإن كان نفيًا في زمن الحال أو الاستقبال، إلا أنه -أيضاً- نفي لأن يكون الله تعالى متخذًا الضلال في خلقه القائم على الحق، فهو نفي أزلي وإن تعلق ظهور ذلك النفي بزمن الحال والاستقبال.

مالك :

جاء اسم الفاعل "مالك" مضافًا مرتين:

الأولى في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ*الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ* مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ (الفاتحة: ٢-٤).

وقد ذهب الزمخشري إلى أنها إضافة حقيقية ، يقول: ((فإن قلت: بإضافة اسم الفاعل إضافة غير حقيقية ، فلا تكون معطية معنى التعريف فكيف ساغ وقوعه صفة لمعرفة؟قلت: إنما تكون غير حقيقية إذا أُريدَ باسم الفاعل الحال أو الاستقبال ، فكان في تقدير الانفصال كقولك: "مالك الساعة أو غدًا" ، أما إذا قصد معنى الماضي كقولك: "مالك عبده أمس" ، أو زمانً مستمر كقولك: "زيدُ مالك العبيد" ، كانت الإضافة حقيقية ، كقولك: "مولى العبيد" ، وهذا هو المعنى في ﴿ مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ ﴾))^(١).

فالزمخشري ينظر إلى الوصف "مالك" في كونه صفة لله تعالى ، فهو سبحانه مالك كل شيء أزلاً وأبداً ، فملكه -عند الزمخشري- ليوم الدين إضافة حقيقية (أصلية وليست عدولاً) لأن صفة "مالك" توجد في الزمن الماضي المستمر ، كوصف ، وإن تحقق هذا الملك في الزمن المستقبل بوجود المملوك.

(١) الزمخشري ، الكشاف ، ١٨/١

أمّا الرازي فقد ذهب إلى أنّ الإضافة غير حقيقية ، أصلها: "مالكٌ يومَ الدين" بالتثوين، وجاء اسم الفاعل مضافاً لداعٍ بلاغي ، والرازي ينظر في رأيه إلى المعنى الفعلي في "مالك" ، وإلى تحقق هذا الملك بوقوعه على المفعول به "يوم الدين" بصرف النظر عن كونه "مالك" صفةً إلهية لها وجود في الذات العلية ، فيقول الرازي: ((إن قيل: أنّ المالك لا يكون مالكا للشيء إلا إذا كان المملوك موجوداً ، والقيامة غير موجودة في الحال ، فلا يكون الله مالكا ليوم الدين ، بل الواجب أن يُقال: "مالكٌ يومَ الدين" بدليل أنه لو قال: "أنا قاتلُ زيدٍ" فهذا إقرار ، ولو قال: "أنا قاتلُ زيداً" (بالتثوين) كان تهديداً ووعداً. قلنا: الحقّ ما ذكرتهم ، إلا أنّ قيام الساعة لمّا كان أمراً حقاً لا يجوز الإخلال في حكمه ، جعل وجود القيامة كالأمر القائم في الحال ، الحاصل في الحال))^(١).

فالمملوك هنا (يوم الدين) يقع في الزمن المستقبل ، ممّا يجعل التركيب الإضافي عدولاً عن أصل التثوين . والجميل في رأي الرازي أنه يتحدث عن مسوّغ العدول ، ولا يرجعه إلى قدرة الله على إيجاد يوم القيامة ، وإنما يرجعه إلى وجوب إيجاد يوم القيامة ؛ لأنه يوم الحساب (يوم الدين) بعد خلق الخلق ، وهدايتهم ، وابتلائهم ، وبعثهم .

فمسوّغ "الرازي" أن يوم القيامة كالمحقق الموجود لوجوب وجوده . وجاء النسفي بمسوّغ آخر: ((وإنما ساغ وقوعه صفةً للمعرفة -مع أنّ إضافة اسم الفاعل إضافة غير حقيقية- لأنه أريد به الاستمرار))^(٢).

ولا أرى خلافاً بين رأي الزمخشري من جهة ، ورأي الرازي والنسفي من جهة أخرى ، فالرأي الأول ينظر إلى المجاز على أنه حقيقة لقوة المسوّغ ، والرأي الثاني يراعي وجود أصل للمعنى.

(١) الرازي ، التفسير الكبير ، ٢٣٥/١ ،

(٢) النسفي ، مدارك التنزيل ، ٢٠/١ ،

فمثل ذلك لفظ "الصلاة" ، فإطلاقه على الأفعال المخصوصة في الإسلام أصلٌ ، مع أن إطلاق لفظ "الصلاة" على الأفعال المخصوصة (التي تبدأ بالتكبير وتنتهي بالتسليم) في حقيقته مجاز ، لأن لفظ "الصلاة" في اللغة: الدعاء. فهو مجاز كالأصل لقوة المسوَّغ بتضمّن الصلاة المشروعة في الإسلام على الدعاء.

فالعُدول إلى الإضافة في تركيب "مالك يوم الدين" داعيه قوة وجوب تحقق هذا الملك للملوك ؛ لحكمة الخلق ، فهو كالأصل المتحقق الموجود. أمّا المرّة الثانية التي جاء فيها اسم الفاعل "مالك" مضافاً فهي في قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ﴾ (آل عمران : ٢٦). ومعنى "مالك الملك" كما يقول الزمخشري: ((تملك جنس الملك))^(١) ؛ فهي صفة أزلية وأبدية ، متحققة على الدوام ، فإضافتها إضافة حقيقية ليست عدولاً عن التوئين .

(هادي) :

جاء اسم الفاعل "هادي" مضافاً ثلاث مرّات ، مرّة في تركيب "هادي الذين آمنوا" وجاء مرتين في تركيب "هادي العمي".

وتركيب "هادي الذين آمنوا" جاء في قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَانْقِلَابِيَّةٌ لِقُلُوبِهِمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (الحج : ٥٢-٥٤)

(١) الزمخشري ، الكشاف ، ٣٠٨/١

إنّ تركيب "هادي الذين آمنوا" جاء في سياق الحديث عن أحوال المؤمنين والمنافقين إزاء ما تشابه في الدين ، فمعناه كما يقول الزمخشري: ((أن يتأولوا ما يتشابه في الدين بالتأويلات الصحيحة ، ويطلبوا لما أشكل منه المجل الذي تقتضيه الأصول المحكمة ... وقرئ "لهادٍ الذي آمنوا" بالتنوين))^(١).

فالسّياق يدلّ على أنّ الهداية تحصل للمؤمنين في الحال أو المستقبل ، ومعنى السّياق هو الذي سوّغ مجيء الهداية في صيغة المتحقّق ، لأنّ السّياق يتحدّث عن تسليم المؤمنين بما هو متشابه ، والهداية لحكمته مستقبلاً ، وهو تسليم بُني على الإيمان بكلّ ما أنزله الله على رسوله مسبقاً.

فالعُدول عن التنوين -وهو الأصل- "لهادٍ الذين آمنوا" إلى الإضافة ؛ سوّغه أن اهتداء المؤمنين إلى التسليم لما هو متشابه وتأويله تأويلاً صحيحاً (وهو في الحال والمستقبل أصله التنوين) بني على هداية الله لهم المسبقة بالإيمان بما أنزله الله تعالى ، وأنه الحقّ من عنده (وهي هداية في الزمن الماضي لنزول المتشابهات) فهدايتهم في الزمن الماضي سوّغ مجيء هداية التسليم بما هو متشابه حالاً أو مستقبلاً في صيغة الزمن الماضي (الإضافة) لأنّ هداية التسليم بما هو متشابه مبنية وتابعة لهداية الإيمان بأنّ كل ما هو من عند الله حق ، فهداية التسليم بما هو متشابه واجبة التحقق في الحال والاستقبال ، فهي كالتحقّق ، لأنها مبنية على إيمانهم بالمتحقّق بكل ما هو من عند الله .

ولم يأتِ مثل هذا المعنى مع الصيغة الدالة على الحال والاستقبال ، فقد جاء الفعل المضارع "يهدي" مع الدخول في الإسلام ، مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (البقرة : ١٤٢).

(١) الزمخشري ، الكشاف ، ٢٣٢/٣

كما جاء الفعل "يهدي" لهداية المؤمنين إلى الجنة بعد العمل الصالح ،
 مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ
 تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (يونس : ٩).

أو مع هداية المؤمنين لفتح مكة ، يقول تعالى: ﴿ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا
 مُسْتَقِيمًا ﴾ (الفتح: ٢٠).

فالهداية مع صيغة الحال أو الاستقبال انتقال إلى شيء جديد غير
 مسبوق للمهتدين، أمّا الهداية في "هادي الذين آمنوا" هداية التسليم في الحال
 والاستقبال لما آمنوا به من قبل.

أما تركيب "هادي العمي" الذي جاء مرتين فهو في قوله تعالى:

١- ﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ
 مُسْلِمُونَ ﴾ (النمل : ٨١).

٢- ﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ
 مُسْلِمُونَ ﴾ (الروم : ٥٣)

وتتوین اسم الفاعل "هادي" في موضعية -هنا- هو الأصل ، يقول
 الزمخشري: ((وقرئ: "ولا يسمع الصم" ، وما أنت بهادي العمي " على
 الأصل))^(١) وإضافة اسم الفاعل إضافة غير حقيقية (لفظية) يقول البنا عن اسم
 الفاعل "هادي": ((مضافاً للعمي إضافة لفظية ، نحو: "بالغ الكعبة"))^(٢).

والتركيب الإضافي "هادي العمي" في سورة النمل جاء في سياق كفر
 بني إسرائيل بالقرآن ، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفْصَحُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ
 الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (النمل : ٧٦).

(١) الزمخشري ، الكشاف ، ٤٢٦/٣

(٢) البنا ، إتحاف فضلاء البشر ، ٤٣١

فجاء التخليط بنفي هدايتهم على الدوام كأنه ماضٍ مستمر (متحقق) لأنهم أولى من غيرهم بالإيمان ؛ فهم يؤمنون بالتنزيل ، ويعرفون الحق من قبل ، لكنهم - كعادتهم مسبقاً - ينكرون ويضلون غيرهم.

فالدول عن التنوين إلى صيغة الإضافة الدالة على نفي هدايتهم في الزمن الماضي المستمر تأكيداً على عدم إسلام اليهود وكفرهم بالقرآن ، فالدول جاء ليفيد أن الهداية ليست من شأنهم أصلاً ، فهم أهل قسوة وكفر ، تأكيداً على نفي هداية في الحال والاستقبال.

وهذا التخليط في شأنهم لأنهم كفروا بالقرآن مع علمهم بصدق التنزيل ، ووجود الوحي من الله مسبقاً.

وجاء التركيب الإضافي في سورة الروم لنفي هداية كفار قريش ، وقد جاء نفي هداية كفار قريش بصيغة الفعل المضارع في قوله تعالى:

١- ﴿ وَمَنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمَىٰ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (يونس: ٤٣).

٢- ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ (القصص : ٥٦).

٣- ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمَىٰ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (الزخرف: ٤٠)

وهذه المواضع التي جاء فيها نفي الهداية لكفار قريش بصيغة الحال والاستقبال في سور مكية (يونس ، القصص ، الزخرف) متقدمة نزولاً على سورة الروم التي نزل فيها التركيب الإضافي "هادي العمي".

فسورة الروم متأخرة نزولاً في مكة ، فلم تنزل سور أخرى في مكة بعد سورة الروم إلا سورتي العنكبوت والمطففين^(١).

(١) انظر: السيوطي ، الإتقان ، ٢٥/١

وتحدثت سورة الروم في أولها عن انتصار الروم على الفرس بعد بضع سنين ، وبضع سنين -هنا- تعنى: تسع سنين كما جاء في الروايات التي ذكرها ابن كثير في تفسيره: ((فمضت السبع ولم يكن شيء ... فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما بضع سنين عندهم ؟ قالوا: دون العشر. قال: اذهب وزايدهم وازدد سنتين في الأجل))^(١) أي دد سنتين على سبع سنين ، فمعنى بضع سنين: تسع سنين.

ويقول ابن كثير: ((كان نصر الروم على فارس عام الحديبية))^(٢) أي العام السادس من الهجرة ، فتكون سورة الروم نزلت قبل العام السادس من الهجرة بتسع سنوات، أي نزلت قبل الهجرة بثلاث سنوات ، وقد مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم داعياً في مكة ثلاث عشرة سنة ، وهذا يدل على أن سورة الروم نزلت بعد دعوة الرسول للكفار مدة عشر سنوات ولم يهتدوا.

فالتخليط بنفي هدايتهم على الدوام ، وجعله كالمحقق عن طريق الإضافة ؛ إنما سوغه طول فترة عنادهم ، فهي فترة تؤكد أنهم لن يستجيبوا للرسول صلى الله عليه وسلم ، ولعل في ذلك إشارة إلى ضرورة انتقال الدعوة إلى مكان آخر. فهو مماثل لما قاله الله تعالى لنوح عليه السلام: ﴿ وَأَوْحِيْ إِلَى نُوْحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾ (هود: ٣٦).

فإذا كان المعنى ينفي هداية الرسول صلى الله عليه وسلم للعمي الميؤوس من هدايتهم في الحال أو الاستقبال ، فإن العدول عن الصيغة الأصلية للحال والاستقبال وهي التثوين ، إلى صيغة الإضافة الدالة على الزمن الماضي المستمر ؛ إنما هو عدول إلى نفي وجود الهداية لهم أصلاً، تأكيداً على عدم هدايتهم بعد طول فترة الدعوة ، فعدم هدايتهم في المستقبل كالمحقق الموجود ؛ لأن هؤلاء ليس من شأنهم الهداية وأنتم فيهم ، بدليل مكثك فيهم داعياً فترة طويلة ومع ذلك لم يهتدوا.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ، ١٢٥/٦

(٢) نفسه ، ١٢٩/٦

وهنا يمكن ملاحظة التقارب بين مواضع اسم الفاعل "هادي" مضافاً:

فإضافة اسم الفاعل "هادي" في "هادي الذين آمنوا" لأنه جاء لهداية التسليم بالمتشابهات في الزمن المستقبل وهو مبني على تحقق إيمان المؤمنين بما هو من عند الله، والإضافة في "هادي العمي" إنما جاءت لنفي هداية بني إسرائيل ونفي هداية كفار مكة في الزمن المستقبل، فهي مبالغة في تمسكهم بالكفر، لأن تمسكهم بالكفر مبني على فسوتهم وطول فترة عنادهم، مع علم بني إسرائيل المسبق بوجود التنزيل، وعلم كفار قريش المسبق بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم.

فداعي العدول إلى الإضافة مع أن الهداية أو نفياها في المواضع الثلاثة حالاً أو مستقبلاً: أن تحقق الهداية أو نفياها في الحال أو المستقبل مبني وحاصل على ما هو متحقق من هداية أو عناد في الزمن الماضي.